ابن حزم الأندلسي

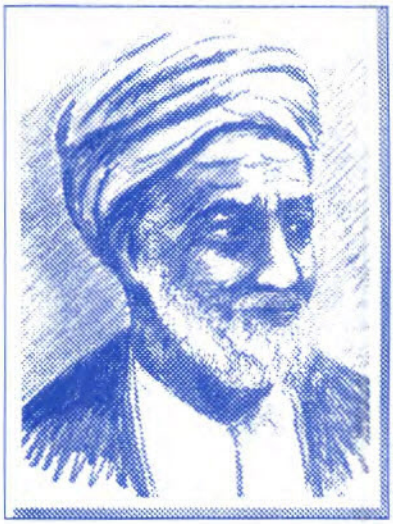

بقلم : الأستاذ مفلح مهنا

تمهيد :

دفعني إلى كتابة هذا المقال عن ابن حزم الأندلسي اطلاعي على كثير من آرائه الفقهية أثناء دراستي لكتاب فقه السيرة للدكتور محمد سعيد البوطي، خالف فيها أئمة العلماء، فأحببت في هذه العجالة أن ألقي الضوء على هذه الشخصية الإسلامية الكبيرة .

نشأته :

ولد ابن حزم واسمه علي في قرطبة في بيت كريم من والد عظيم اسمه أحمد الذي كان رئيسًا للوزراء في عهد المنصور بن أبي عامر ، فنشأ ابن حزم نشأة كريمة فيها نباهة شأن، ورجاحة عقل، وحرية رأي، وجرأة منطق، وطموح إلى المعالي، ومغامرات في سبيل الاحتفاظ بالمجد والتسامي فيه .

لقد توفرت لابن حزم عوامل النبوغ والنهوض واجتمعت له أسباب كثيرة ترفع ذكره وتذيع صيته، وندر أن يحفظ التاريخ ما حفظه له من مقومات العظمة وبواعث الإجلال التي كانت مثار إعجاب محبيه والمعجبين به ومثار كره مبغضيه وشانئيه والحاقدين عليه .

عصره :

من خلال دراستنا لعصره نجده قد نشأ في الأندلس أواخر عهد دولة بني أمية ، وعهد ملوك الطوائف . وفي هذه الفترة نلمس اضطرابًا سياسيًا كبيراً ، نرى تنافسًا عظيمًا للوصول إلى السلطة ، نشاهد تمزقًا في الدولة فتنقسم الدولة العظيمة إلى إمارات متنافرة ، إمارات تظهر ، وأخرى تزول ، شخصيات تبرز يكون لها السلطان وأخرى يطويها النسيان .

ثقافته :

تثقف ابن حزم بثقافة عصره ، فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ، وتلقى علوم الحديث رواية ودراية ، وحفظ متون العلوم المختلفة من

فقه وتوحيد وبلاغة ونحو ، وبعد أن نضج أخذ يتذوق معاني هذه المتون بعد أن عاد إليها فاستمع إلى شرحها من كبار علماء قرطبة ، فلمحوا فيه لونًا من الذكاء لم يعرفوه بين معاصريه .

لم يكن ابن حزم بالتلميذ الذي يعتمد على معلميه ، أو يكتفي بما يحصل عليه منهم ، بل كان عصاميًا ، فما أن شبّ عن الطوق حتى أخذ يقرأ لنفسه ويدرس لنفسه ، ويفكر لنفسه، معتداً برأيه ، فنبغ في علوم جمة ، فكان فيها متكلمًا ، منطقيًا ، طبيبًا ، أديبًا ، شاعراً ، مؤرخًا ، عاملاً بعلمه ، زاهداً في الدنيا بعد الرئاسة والوزارة التي كانت له ولأبيه من قبله في بلاط أمراء قرطبة .

ابن حزم في عهده الأول كان رجل العلم والحكمة والرئاسة والحكم ، كان وزيراً بين الوزراء ومستشاراً بين المستشارين ، عالمًا يفوق العلماء .

ابن حزم بين عهدين :

ابن حزم في عهده الأول كان رجل العلم والحكمة والرئاسة والحكم، كان وزيراً بين الوزراء ومستشاراً بين المستشارين عالمًا يفوق العلماء في هذا العهد كان له أصدقاء وكان له أعداء، فلما نشبت الاضطرابات السياسية في قرطبة أسقطت الأسرة العامرية عن عرشها التي كان والده كبير وزرائها ، فتأثر مركز الوالد والولد بهذه النكبة الفادحة ، فعانى الاثنان من صنوف المحن الشيء الكثير .

ضاق ابن حزم بقرطبة خاصة بعد أن توفي والده ، فنفسه لا تطيق الضيم ، ولا تقبل المهانة ، فخرج منها وتنقل في عدة أماكن ، حتى استقر في المرية ، واتخذها مكانًا لإقامته. خرج من الأندلس يقول :

مما يزهدني في أرض أندلس
ألقاب معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد

صفت الأيام بعض الوقت لابن حزم في المرية ، ولكن أميرها سجنه بوشاية من أعدائه وفي مرحلة أخرى من حياته شارك في حرب نشبت في غرناطة ، فوقع في الأسر فترة من الزمن ، وهكذا كان ابن حزم يخرج من شدة ويغادر سجنًا إلى سجن ، جاء في شعره بهذا المعنى :

ولكنّ لي في يوسف خير أسوة
وليس من بالنبي ائتسى ذنب
تقول مقال الصدق والحق أنني
حفيظ عليم ما على الصادق عتب

عهد ابن حزم الثاني :

اعتزل في هذا العهد أمر السياسة ، وتفرغ

للدرس والتأليف ، والدفاع عن آرائه ، وسيتبين لنا أنه لم يهنأ فيه أيضًا بالاستقرار والهدوء .

ابن حزم المجتهد :

من أبرز مقومات فكر ابن حزم تحريم التقليد ، يقول :"لا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد دون برهان ، ولا يصح لأحد أن يقلد أحداً ولو كان صحابيًا" .

غلب على أهل المغرب اتباع مذهب الإمام مالك بينما نرى مذهبه (ابن حزم) شافعيًا ، ثم نراه يميل إلى الاجتهاد سالكًا طريق أهل الظاهر ، آخذاً بظاهر القرآن الكريم والسنة الشريفة .

رفض العمل بالقياس والاستحسان ، لأن علماء عصره اتخذوهما وسيلة لتبرير الواقع السيء ، ومحاولة إقرار انحراف المجتمع ، كان أهم ما أزعجه تفرق كلمة المسلمين وانقسامهم وتوسع علماء الدين في الفتوى تبريراً للواقع المرير .

مزاج ابن حزم :

تميز ابن حزم بمزاج حاد عنيف سيطر عليه طوال حياته ، وجر عليه ما جر من تأليب الناس فكثر حساده وأعداؤه ببعده عن المصانعة وانتقاد أكثر فقهاء عصره .

كان معتداً برأيه ولم يسلم أحد من نقده والعيب عليه ، حتى الأئمة ، أبي حنيفة ، والشافعي ، ومالك ، فطعن في آرائهم ، ورد عليهم رداً عنيفًا .

إذا كان هذا موقفه من كبار الأئمة ، فكيف في نقد سواهم من العلماء ، فلم يسلم أحد من لسانه ، قال أبو العباس بن العريف كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان .

موقف العلماء منه :

موقفه هذا من العلماء جعله هدفًا لسهامهم فتعرض لنقدهم وتجريحهم ، فلم يكن في حياته في هذه المرحلة هادئ البال ، مطمئن النفس لكثرة أعدائه وخصومه الذين بادلوه ذمًا بذم ونقداً بنقد ، فنفّروا الناس منه بعامة ، وأبعدوا عنه الأمراء بخاصة ، وبغضوا به طلاب العلم ، لذلك فلم يكن في حلقته الدراسية إلا القليل منهم ، قد بلغ من أمره أن المعتضد بن عباد أحرق كتبه بإشبيلية فقال :

فإن تحرقوا القرطاس لن تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسر معي حيث استقرت ركائبي
وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

من أبرز مقومات فكر ابن حزم تحريم التقليد . يقول :"لا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد دون برهان ، ولا يصح لأحد أن يقلد أحداً ولو كان صحابيًا" .

في أعوامه الأخيرة ألف أعظم كتبه :

١. «المحلى» في أحد عشر مجلداً بالإضافة إلى مؤلفاته العديدة التي قيل إنها بلغت أربعمائة مجلد ، ومهما وصف هذا القول بالمبالغة ، فإن ما ترك ابن حزم من آثار لا تزال بين أيدي الباحثين تؤكد أنه كان إمامًا مجتهداً واضح الرؤية للإسلام في مجال تحديات عصره .

٢. مؤلفاته « الفصل في الملل والنحل» الذي سبق به مؤلفي أوروبا بالكتابة في علم الأديان المقارن ، فتصدى لعلماء أهل الكتاب من يهود ونصارى ، وهو في خمسة مجلدات .

٣. وله كتاب « طوق الحمامة» ترجم إلى معظم اللغات الأوروبية .

٤. وله « جمهرة أنساب العرب» يعتبر هذا الكتاب دراسة شاملة للقبائل العربية وانتشارها.

نظرية المعرفة :

ابن حزم صاحب نظرية المعرفة الإسلامية ، ابتكرها قبل أن تعرف أوروبا مذهب المعرفة بسبعة قرون ونصف ، فهو يرى أن المعرفة تكون أولا بشهادة الحواس ، وثانيًا بالعقل من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس ، وثالثًا ببرهان راجع إلى شهادة الحواس والعقل .

ويقرر ابن حزم أن الغرض من الفلسفة والشريعة يجب أن يكون إصلاح النفس .

الخاتمة :

كان ابن حزم استجابة لتحديات عصره فكان علمًا من أعلام البعث والتصحيح للأخطاء كالانحراف عن مفهوم الإسلام .

ابن حزم صاحب نظرية المعرفة الإسلامية ، ابتكرها قبل أن تعرف أوروبا مذهب المعرفة بسبعة قرون ونصف .

يقول ابن حزم مندداً بالعلماء :«لم يعد الناس يعرفون الحلال والحرام في الكسب ، وأصبح العلماء عونًا على الفساد والطغيان ، يأكلون على جميع الموائد ويتنافسون في مضمار الشر» ويتحدث عن مفهوم الإسلام فيناقش أخطر القضايا مثل : التعليم الإجباري، الأرض لمن يزرعها ، الرجل والمرأة متساوون في العلم والثقافة ، ويرى حرمة العزل مستدلاً بقول الرسول عليه الصلاة والسلام :"ذلك الوأد الخفي" عندما سئل الرسول عنه ، وهو في ذلك يخالف عدداً من العلماء .

المراجع :

١. وفيات الأعيان .
٢. بحث في مجلة الأزهر ، سنة ١٩٤٧ .
٣. ابن حزم الأندلسي ، سعيد الأفغاني .
٤. نوابغ الإسلام ، أنور الجندي .